عروس تزف الى قبرها

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

— ١ —

كان عمرُها طاقةَ أزهارٍ تُسمى أياماً

كان عمرُها طاقةَ أزهارٍ يَنتسِقُ فيه اليومُ بعد اليوم كما تَنبتُ الورقةُ الناعمةُ فى الزهرة الى ورقةٍ ناعمةٍ مثلها

أيامُ الصَّبيِّ المَرِحةُ حتى فى أحزانِها وهمومِها ؛ إذ كان مجيئُها من الزمن الذى خُصَّ بشباب القلبِ ، تبدو الأشياءُ فى مَجارى أحكامِها كالمسحورةِ ؛ فان كانت مُفرِحةً جاءت حاملةً فرَحَيْن ، وإن كانت محزنةً جاءت بنصف الحزن

تلك الأيامُ التى تعملُ فيها الطبيعةُ لشباب الجسم بقُوًى مختلفة ، منها الشمسُ والهـــواءُ والحركة ، ومنها الفرحُ والنسيانُ والأحلام !

* * *

ونشبتْ العذراءُ وأُفرِغَتْ فى قالب الأنوثة الشمسى القمرى ، واكتسى وجهُها ديباجةً من الزَّهر الغَضّ ، وأودعتها الطبيعةُ سِرَّها النسائىَّ الذى يجعلُ العذراءَ فنَّ جمالٍ لأنها فنُّ حياة ، وجعلتها تِمثالا للظَّرف ؛ وما أعجبَ سِحرَ الطبيعةِ عند ما تُجمِّلُ العذراءَ بظرفٍ كظرف الأطفال الذين ستلدُهم من بَعد ! وأسبغَتْ عليها معانىَ الرقة والحنَانِ وجمالِ النفس ؛ وما أكرم يد الطبيعة عند ما تُسَهِّرُ العذراءَ من هذه الصفات سَهرَها الانسانى !

* * *

ولو قد ذهبتُ أسرد لك جملةَ الشاكين والشاكيات ، والباكين على سـوء حالهم والباكيات ، لما اتسعت صحائف (الرسالة) ، لاستيعاب هذه المقالة

ومهما يكن من أمر ، فلعلك قد اقتنعت الآن بأن أصدق وصف لمصر فى هذا العصر ، وأن أدق تعريف ينطبق عليها دون سائر الأمم هى أنها بلاد الشكوى !

ولعلنا نوفق قريبا الى إتمام المقال ، بالبحث عن علة هذه الحال ؟

عبد العزيز البشرى

وخُطبت العذراءُ لزوجها ، وعُقد له عليها فى اليوم الثالث من شهر مارس فى الساعة الخامسة بعد الظهر

وماتت عذراءَ بعد ثلاث سـنين ، وأُنزِلَتْ الى قبرها فى اليوم الثالث من شهر مارس فى الساعة الخامسة بعد الظهر !

وكانت السنواتُ الثلاثُ عُمرَ قلبٍ يُقطِّعُه المرض ، يتنظرون به الفُرْس ، وينتظر بنفسه الرَّمس !

يا عجائبَ القدَر ! أذاك لحنٌ موسيقىٌّ لأنينٍ استمر ثلاثَ سنوات ، فجاء آخرُه موزوناً بأوّله فى ضبطٍ ودِقة ؟

أكانت تلك العذراءُ تحملُ سرّاً عظيما سيُغيِّر الدنيا ، فردّت الدنيا عليها يوم التهنئةِ والابتسامِ والزينة — وهو يوم الوَلولة والدموع والكفن ؟

— ٢ —

واهاً لك أيها الزمن ! مَن الذى يفهمك وأنت مُدّةُ أقدار ؟ واليومُ الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعدد أهل الدنيا جميعاً ، وبهذا يعود لكل مخلوقٍ سرٌّ يومه ، كما أن لكل مخلوق سرَّ روحه ، وليس اليه لاهذا ولا هذا

وفى اليوم الزمنىّ الواحد أربعمائة مليون يوم إنسانىّ على الأرض ! ومع ذلك يُحصيه عقلُ الانسان أربعاً وعشرين ساعة ؛ يا للغباوة . . . . !

وكلُّ إنسان لايتعلّق من الحياة إلا بالشعاع الذى يُضيءُ المكانَ المظلمَ فى قلبه . والشمسُ بما طلعَت عليه لا تستطيع أن تنير القلبَ الذى لايضيئُه إلا وجهُ محبوب

وفى الحياة أشياءُ مكذوبةٌ تكبِّر الدنيا وتُصغِّر النفس ، وفى الحياة أشياء حقيقية تعظِّم بالنفس وتصغِّر بالدنيا ؛ وذهبُ الأرض كلُّه فقرٌ مُدْقِعٌ حين تكون المعاملة مع القلب

أيتها الدنيا ؛ هذا تحقيرك الالهىُّ إذا أكبرك الانسان !

* * *

ويا عجبا لأهل السوء المغترّين بحياة لابدَّ أن تنتهى ! فماذا يرتقبون إلا أن تنتهى ؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضـة ؛ وهل أعجبُ وأغمضُ من أن يكون انتهاءُ الانسان الى آخرها هو أوّلُ فكرهِ فى حقيقتها ؟

فعند ما تَحينُ الدقائقُ المعدودةُ التى لا تَرقُمُها الساعةُ ولكن يرقمها صدرُ المحتضَر . . . عنـد ما يكون مُلكُ

الملوك جميعاً كالتراب لا يشترى شيئاً البتّة . . . .

. . . . ماذا يكون أيها المجرم بعد ما تَقْتَرِفُ الجناية ، ويقومُ عليك الدليل ، وترى حولك الجند والقضاة ، وأمامك الشريعة والعدل ؟

* * *

أعمالنا فى الحياة هى وحدها الحياة ، لا أعمارُنا ولا حظوظنا . ولا قيمة المال ، أو الجاه ، أو العافية ، أو هى معاً — إذا سُلبَ صاحبها الأمنَ والقرار ! والآمنُ فى الدنيا من لم تكن وراءه جريمةٌ لا تزال تجرى وراءه . والسعيدُ فى الآخرة مَن لم تكن له جريمة تُطارِدُه وهو فى السموات

كيف يمكن أن تخدعَ الآلةُ صاحبها وفيها (العدّاد) ، ما تتحرّكُ من حركةٍ إلا أشعرَته فَعَدّها ؟ وكيف يمكن أن يكْذِبَ الانسان ربَّه وفيه القلب ؛ ما يعمل من عملٍ إلا أشعره فعدّه ؟

— ٣ —

ورأيتُ العروسَ قبل موتها بأيام

أفرأيت أنتَ الفتى عندما يُدْبِرُ عن إنسان ليتركَ له الحسرةَ والذكرى الأليمة ! أرأيتَ الحقائق الجميلة تذهبُ عن أهلها فلا تتركُ لهم إلا الأحلامَ بها ؟ ما أتعبَ الانسانَ حين تتحوّل الحياةُ عن جسمه الى الاقامة فى فكره !

وما هى الهمومُ والأمراض ؟ هى القبر يستبطىء صاحبه أحياناً فينفض فى بعض أيامه شيئاً من ترابه . . . !

رأيتُ العَروس قبلَ موتها بأيام ، فيالله من أسرار الموت ورهبتها ! فَرَغَ جسمُها كما فرغتْ عندها الأشياءُ من معانيها ! وتخلّى هذا الجسم عن مكانه للرُّوح ، تَظهرُ لأهلها وتقفُ بينهم وقفةَ الوَدَاع !

وتحوّل الزمنُ إلى فكرٍ مريضة ؛ فلم تَعُد تعيشُ فى نهارٍ وليل ، بل فى فكرٍ مضىءٍ أو فكرٍ مظلم !

يا إلهى ، ما هذا الجسمُ المتهدّم المقبلُ على الآخرة ؛ أهو تمثال بَطَلَ تعبيرُه ، أم تمثالٌ بدأ تعبيرُه ؟

لقد وثقتْ أنه الموت ، فكان فكرها الالهىّ هو الذى يتكلم ؛ وكان وجهُها كوجه العابد ؛ عليه طَيفُ الصلاةِ ونورُها . والروحُ الانسانية متى عبّرت لا تعبر إلا بالوجه

ولها ابتسامةٌ غريبةُ الجمال ؛ إذ هى ابتسامةُ آلامٍ أيقنتْ أنها مُوشكةٌ أن تنتهى ! ابتسامةُ روح لها مثلُ فَرحِ السجين قد رأى سجّانه واقفاً فى يده الساعة ، يرقُبُ الدقيقةَ والثانية ليقول له : « إنطلِق ! »

* * *

ودخلتُ أعودُها فرأتْ كأنى آتٍ من الدنيا . . . ! وتَنسّمتْ منى هواءَ الحياة ، كأنى حديقةٌ لا شخص !

ومَن غيرُ المريض المُدنف ، يعرف أن الدنيا كلمةٌ ليس لها معنىً أبداً إلا العافيـة ؟ من غيرُ المريضِ المشرفِ على الموت ، يعيش بقلوب الناس الذين حوله لا بقلبه ؟

تلك حالةٌ لا تنفع فيها الشمسُ ولا الهواءُ ولا الطبيعةُ الجميلة ، ويقوم مقامَ جميعها للمريض أهلُه وأحبّاؤه !

وكان ذَوُوها من رهبة القدر الدانى كأنهم أسرى حربٍ أُجلسوا تحت جدارٍ يريد أن ينقض ! وكانت قلوبهم من فزعها تَنبضُ نبضاً مثلَ ضربات المعاول

وباقتراب الحبيب المحتَضَرِ من المجهول ، يُصبح من يحبُّه فى مجهولٍ آخر فتختلط عليه الحياةُ بالموت ، ويعود فى مثل حَيرَةِ المجنون حين يُمسكُ بيده الظلَّ المتحرّك ليمنعه أن يذهب ! وتمروه فى ساعة واحـدة كآبةُ عمرٍ كامل ، تُهيئُ له جلالَ الحس الذى يشهد به جلالَ الموت !

* * *

وحانت ساعةٌ مالا يُفْهم ، ساعةُ كلِّ شىء ، وهى ساعةُ اللاشىء فى العقل الانسانى ! فالتفتتْ العروسُ لأبيها تقول : « لاتحزنْ ياأبى . . . » ولأمها تقول : «لا تحزنى ياأمى . . . ! »

وتبسمتْ للدموع كأنما تحاول أن تكلمها هى أيضاً ؛ تقولها : « لاتبكى . . . ! » وأشفقتْ على أحيائها وهى تموت ، فاستجمعتْ روحَها ليبقى وجهها حياً من أجلهم بضع دقائق ! وقالت : « سأغادركم مبتسمةً فعيشوا مبتسمين ، سأترك ذكارى بينكم تذكار عروس ! . . . »

ثم ذكرت الله وذكرتهم به ، وقالت : « أشهد أن لا إله إلا الله » وكررتها عشرا ! وتملأت روحها بالكلمة التى فيها

نور السموات والأرض ، ونطقت من حقيقةِ قلبها بالاسم الأعظم الذى يجعل النفس منيرةً تتلألا حتى وهى فى أحزانها

ثم استقبلت خالق الرحمةِ فى الآباء والأمهات ! وفى مثل إشارة وداع من مسافر انبعث به القطار ، ألقت اليهم تحيةً من ابتسامتها ، وأسلمت الروح !

— ٤ —

يا لعجائب القدر ! مشينا فى جنازة العروس التى زُفَّ إلى قبرها طاهرةً كالطفلة ولم يباركْ لها أحد ! فما جاوزنا الدار إلا قليلاً حتى أبصرتُ على حائطٍ فى الطريق ، إعلاناً قديماً بالخط الكبير الذى يصيح للأعين ؛ إعلاناً قديماً عن رواية هذا هو اسمها : « مبروك . . . ! »

واخترقنا المدينةَ وأنا أنظر وأتقصى ، فلم أرَ هذا الاعلان مرةً أخرى ! واخترقنا المدينة كلها ، فلما انقطع العمرانُ وأشرفنا على المقبرة ، إذا آخر حائطٍ عليه الاعلان : « مبروك . . . ! »

طنطا

ظهر حديثاً كتاب :

فى أصول الأدب

فى ٢٢٠ صفحة بقلم

احمد حسن الزيات

يطلب من ادارة مجلة الرسالة

٢٢ شارع البدولى - القاهرة

ومن سائر المكاتب وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً ما عدا أجرة البريد

صفحات من الدبلوماسية الاسلامية

السفارات الخلافية والسلطانية

وعلائق الاسلام والنصرانية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة

لما تولى المعتصم الخلافة عقب وفاة أخيه المأمون ، حاول قيصر قسطنطينية الأمبراطور تيوفيلوس (توفيل) أن يعقد الهدنة والصلح مع المسلمين ، فأوفد الى المعتصم سفارة على رأسها يوحنا النحوى . وكان يوحنا من أعظم علماء عصره ، يجيد العربية ، فقصد إلى بغداد يحمل أنفس الهدايا والتحف ، وأنزل بأحد قصور الخلافة ؛ وأدهش البلاط برائع بذخه ، وما نثر حوله من مظاهر الفخامة والترف . وتعرض لنا الرواية البيزنطية قصصاً عجيبة عن بذخ يوحنا وفخامته . وكان لهذه السفارة غاية مزدوجة : الأولى أن تعقد بين الخليفة والقيصر معاهدة سلام دائم ؛ والثانية أن يعمل السفير على إقناع متويل ، وهو قائد بيزنطى يلوذ ببلاط الخليفة ، بالعودة إلى قسطنطينية . فأفلح السفير فى تحقيق الثانية ، ولم يفلح فى تحقيق الأولى ؛ ولكن المعتصم رأى أن يجامل القيصر بالأفراج عن مائة من الأسرى النصارى . وعلى أثر هذا الفشل فى عقد الصلح ، زحف الأمبراطور على اراضى المسلمين ، وغزا زبطرة من معاقل الحدود الأسلامية ، وكان الروم يزعمون أنها مسقط رأس المعتصم ؛ فاستولى عليها واستباحها وأنزل بسكانها المسلمين رائع الاثم والسفك ؛ وتروى التواريخ البيزنطية أن المعتصم لما علم بزحف الروم على زبطرة ، أرسل إلى الأمبراطور سفارة يرجوه فيها أن يقر المدينة العيث والسفك فأبى تيوفيلوس وارتكب فيها ما ارتكب ، وهدمها حتى صارت قاعاً صفصفاً

عندئذ قرر المعتصم الحرب وأقسم بالأنتقام وسار الى أراضى